وان البطل الوحيد فيها هو قوة لا يستطيع القانون الاعتقاد بوجودها، الاّ اذا جاءت لتثبت بطلان شيء حدث، وليس حين تكون هي ذاتها وراء شيء يحدث»[١٦]. ان الجاني وذلك الشيء المجهول هما شيء واحد.

٣ ـ قانون المنتصرين: وعلى هذا النحو، تغيّر كل شيء. فما دام البريء متهماً، والجاني مجنياً عليه، فان قانون الكون قد فسد، وتحوّل كل شيء الى نقيض له. من قتل ليلى الحايك؟

القانون، هنا، تحوّل، ضمن تحوّلات كثيرة، الى مصادفة. وثمّة فارق كبير في هذا العالم بين القانون والصدفة؛ وهل ثمّة فارق في هذا العالم بين الظلم والعدل؟ ان المتهم بتهمة لا يعرفها (الفلسطيني) المرور بمأساته يصبح دهشاً، ولكن في صمته: «ان المصادفة، ايها السادة، هي قيمة واقعية في حياتنا، كالقانون والعدالة والجريمة»[١٧].

من قتل ليلى الحايك؟

ان المسؤول عن ذلك اصبح، رويداً رويداً، مع طول المعاناة، هو هذه الصدفة (المجهول). لقد أرّق زوج ليلى، ايضاً، هذا السؤال (والزوج نفسه لا يخلو موقفه من ريب). غير ان الذي همّ المتهم الحقيقي هو ان يتخلّص من ذلك كله. ووصل هذا الواقع الفاسد الى اقتناع (يقين) مؤداه هو اختلاط قيَم الخير والشر، وان الخير والشر، سيّان، اصبحا قيمة واحدة بفعل هذه الصدفة، الفعل العبثي في هذا الكون، الذي يمضي في خطواته بشكل عشوائي في الظاهر، بينما تحركه قوى غامضة في الباطن.

ان هذا الواقع، باحساس وجودي قاتم، قائم، دفع به الى ادانة الصدفة، لأنها تظل معادلاً موضوعياً للعبث البشري. كتب في سخرية ممضاة:

«الصدفة هي التي فعلت، ايها السادة، الصدفة. ليس يهمني ان كانت تلك الصدفة قد لبست ثوب لص، أو ثوب مجرم. جهنمي كان ورائي منذ البدء، ذلك ان الذي يهمني هو ان خصمي في هذه القضية الفاجعة، انما هو الصدفة، وهي التي دفعتني، باصرار، لا يصدق، الى قفص الاتهام»[١٨].

واستدعى الروائي الذاكرة، قصة قديمة يستدل بها على عبث القانون، وعلى انه يمكن قلب الاشياء وتحويلها الى النقيض حين يتحدث المرء عمّا يريده، باتقان، وعمّا يريده ان يكون اولاً؛ وحين يملك القدرة على فعل ذلك، ثانياً، فهو حكى كيف انه، في فترة مبكرة، ارتكب فعلاً فاضحاً مع فتاة ضعيفة. ومع ذلك، استطاع بما يملك من تأثير عاطفي، وقوة منطق خادع، ان يقوم بلعبة الخداع مع والده، ويجعله يقتنع بما يريد، وهو ان الفتاة ـ على العكس ـ هي التي حرّضته، وهو، الذي كان ضحية، هو الذي انصاع منوّماً، وخائفاً، لرغباتها، ان مثّلث الحقيقة اصبح مقلوباً.

كان عليه ان يستدعي، في صمته، هذه القصة، ليدلل بها على ما فعلته هذه القوى الغاشمة بالفلسطينيين. وحين حوّلت الظلم ـ بالحديث الى العالم ـ الى عدل، الى حق عائد لأصحابه، كان يدرك اصول اللعبة، ولكنه لم يلعبها، ومن ثمّ اصبح احد ضحاياها: «لقد ربحت الدعوى، لأنني لعبت، بصورة مصغّرة، لعبتكم: كان المنطق معي، وكذلك الواقعية... ولكن الحقيقة ـ لو علم والدي وعلمتم ـ كانت غير ذلك». ثمّ قال، وكأنه ازاح امراً هامّاً، أو عبئاً ثقيلاً، من على صدره: «ان القصة الحقيقية التي حدثت باتت غير مهمّة»[١٩].